مولود عويمر*

مكة وعوالمها في فكر مالك بن نبي

(الصفحات ٩- ٣٢)

ملخّص

مادوّنه مالك بن نبي عن انطباعاته حول الحج لا يزال مجهولاً، ويستحق الدراسة والتحليل. وهو يصف بدقة المشاهد التي صادفته ويحللها ويعطي لها على عادته أبعادًا حضارية، دون أن يهتم بالجانب الفقهي في مذكراته. وأكد أن الحج فرصة ثمينة للمسلمين لأن يقوّوا صفوفهم ويدعم بعضهم البعض. والمحتلون للعالم الإسلامي كانوا يخشون الحج لأنهم يرون فيه جسرًا لعبور الأفكار الإصلاحية الى البلدان الإسلامية المحتلة.

لقد رسم مالك في مذكراته عن الحج صورة عن الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في مكة بصورة عميقة ومركزة.

كان لدى مالك بن نبي ميل كبير للحديث عن تجاربه وقد استشهد كثيرًا في كتبه بأمثلة مستوحاة من مشاهداته اليومية. وهذه من أكبر نقاط القوة في فكر بن نبي، و إن صادفت هذه الأمثلة نفورًا أو أحدثت غرابة لدى القارئ العربي الذي لم يتعود على ذلك من قبل. ولكن انطباعاته حول أسفاره خاصة التي تتعلق بالحج بقيت مجهولة تحتاج إلى النشر وتستحق الدراسة والتحليل. وقد حاول

---

* - كاتب جزائري.

الباحث الجزائري الدكتورعمربن قينة[1]. أن يقف على أدب الرحلة عند مالك بن نبي ولكن اضطرأن يذكر-لنفس السبب الذي أشرنا إليه -فقط أربعًا من رحلاته، وهي لا تخص الحجازالذي يهمنا في هذه الورقة.فبن نبي يصف بدقة المشاهد التي صادفته ويحللها ويعطي لها على عادته أبعادًا حضارية. وعلى ضوء هذا النموذج، تظهرلنا الخسارة العظيمة لبقاء رحلته الأخرى غيرمنشورة. وقد حاولنا في بحث سابق[2] أن نبرزصفحات مجهولة من حياة هذا المفكرالمتميز؛ وتسعى هذه الدراسة من جديد لمواصلة البحث في هذا الموضوع، وذلك من خلال التركيزعلى تصورمالك بن نبي لمكة وتخيله لعوالمها المختلفة (الأشخاص والأفكاروالأشياء) قديمًا وحديثًا.

مالك بن نبي في سطور:

ولد مالك بن نبي في يناير١٩٠٥ في قسنطينة بالشرق الجزائري. تابع مالك دراسته الابتدائية في تبسة وتعلم فيها جزءًا من القرآن وواصل دراسته الثانوية في قسنطينة. وقرأ أيضًا كتبًا عديدة من التراث الإسلامي القديم. وطالع في شبابه *رسالة التوحيد* للإمام محمد عبده وكتاب *الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق* للكاتب التركي أحمد رضا، وكتاب *أم القرى* لعبد الرحمن الكواكبي وغيرها من كتب الفلسفة والسياسة والاقتصاد.

سافربن نبي إلى فرنسا لمواصلة دراساته العليا. والتحق بمدرسة اللاسلكي بعد أن فشل في التسجيل بمعهد الدراسات الشرقية الشهير. وخلال دراسته بباريس، ساهم في أعمال الحزب الوطني الجزائري «**نجم شمال إفريقيا**» وشارك في نشاطات «**جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا**» التي شغل فيها منصب نائب الرئيس وانضم إلى **جمعية الوحدة العربية السرية** التي أسسها الطالب السوري فريد

زين الدين،المقرب من الأميرشكيب أرسلان. ألقى بن نبي محاضرته الأولى في ديسمبر١٩٣١ وكان عنوانها «**لماذا نحن مسلمون؟**» ففتحت له باب الشهرة في المحيط الثقافي الباريسي.

تخرج مهندسًا كهربائيًا في عام ١٩٣٥. استقرسنوات عديدة في فرنسا بعد فشله في العثورعلى عمل في الجزائروالشرق العربي. وألف بالفرنسية خلال هذه الفترة عدة كتب دينية وأدبية وفكرية واشتغل بالصحافة.

سافرمالك بن نبي إلى مصرفي عام ١٩٥٦ واستقربالقاهرة التي كانت تعجّ بالنشاط السياسي وتزخربالحركة الثقافية. وحرص بن نبي على عقد ندوات فكرية أسبوعية في بيته يحضرها المثقفون والطلبة من مختلف الجنسيات الإسلامية من «**طنجة إلى جاكارتا**».وفي مصرأشرف على ترجمة كتبه إلى اللغة العربية[٣].

وقام برحلات عديدة إلى الشام والحجازوألقى فيها محاضرات، واطّلع على أحوال المسلمين في هذه الدول وتعرّف على الشخصيات العلمية المؤثرة فيها.

وفي عام ١٩٦٣ عاد مالك بن نبي إلى الجزائر، وعُين مديرًا عامًا للتعليم العالي. كتب مقالات ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٨ في المجلة الأسبوعية **الثورة الإفريقية** وصحيفة **المجاهد** التابعتين لحزب جبهة التحريرالوطني. وفي سنة ١٩٦٧،استقال بن نبي من منصبه وتفرغ للعمل الفكري داخل الجزائروخارج حدودها.

توفي مالك بن نبي في ٣١ أكتوبر١٩٧٣ في الجزائر، مخلفًا وراءه كثيرًا من الكتب والمخطوطات؛ طبع جزء منها في الجزائرومصروسوريا ولبنان. كتب معظمها باللغة الفرنسية وقليلاً منها بالعربية وأشهرها: *الظاهرة القرآنية*، *وشروط النهضة*، *ووجهة العالم الإسلامي*، *وفكرة الإفريقية الآسيوية*، *ومشكلة الثقافة وميلاد مجتمع ومشكلة الأفكارفي العالم الإسلامي والصراع الفكري في البلاد المستعمرة*، *ومذكرات شاهد القرن*، *وفكرة كومنولث إسلامي*، *ودور المسلم*

ورسالته في الثلث الأخيرمن القرن العشرين، والمسلم في عالم الاقتصاد، وتأملات، وبين الرشاد والتيه...

مصادر مالك بن نبي عن مكة:

تنوعت مصادرمالك بن نبي عن مكة المكرمة بين القرآن الكريم وكتب السيرة والتاريخ والمراجع الحديثة والصحافة والقصص الشعبية والتجربة الشخصية.

درس في قسنطينة السيرة النبوية على يد الشيخ مولود بن موهوب العالم ومفتي المدينة المعروف. وقرأ أيضا كتب التاريخ الإسلامي: *الطبقات الكبرى* لإبن سعد، *تاريخ الرسل والملوك* للطبري، *ومروج الذهب* للمسعودي، *والكامل في التاريخ* لابن الأثير، وكتاب *العبر* و*المقدمة* لابن خلدون. وبفضل هذه الكتب راح الشرق يستهويه ويجذبه نحو عوالمه وهو مازال شابًا يافعًا.

قرأ مالك بن نبي في شبابه جريدة «**أم القرى**» وجريدة «**القبلة**» اللتين تصدران في مكة. وجريدة أم القرى تأسست في ١٢ ديسمبر١٩٢٤ بينما تأسست جريدة **القبلة** في ١٥ أوت ١٩١٦ وتوقفت عن الصدورفي ٢٥ سبتمبر١٩٢٤. ترأس تحريرها محب الدين الخطيب حتى عام ١٩١٩ وخلفه حسين الصبان بعد أن عمل العالم الجزائري الشيخ الطيب العقبي مديرًا لها خلافًا لما ذكره الباحث الدكتورمحمد عبدالرحمن الشامخ الذي يرى أن الصحيفة بقيت مدة عام دون مديرمسؤول بعد استقالة محب الدين الخطيب[٤].

ودخلت الصحف العربية إلى الجزائرعن طريق الحجاج الذين يحملونها معهم في حقائبهم بعد أداء مناسك الحج والرحّالون كالتجار والطلبة الذين يدرسون في الأزهروالزيتونة وكذلك أصحاب الاشتراكات الفردية؛ فقد أشارت صحيفة «القبلة» إلى اشتراك كثيرمن القراء في العالم العربي دون أن تعطي التفاصيل، ولا شك أن منهم مشتركين وقراء من المغرب العربي. وتحتوي هذه الصحف على

أخبارودراسات عن الحجاز كما تقوم الصحف الجزائرية بنشرمقالات عن هذا الموضوع؛ فمجلة الشهاب التابعة لجميعة العلماء الجزائريين نشرت مقالة في ذي القعدة ١٣٤٧هـ/ماي ١٩٢٩ بقلم الشيخ **عبدالحميد بن باديس** بعنوان: «كيف كان بناء الكعبة المشرفة» .ولقد لقيت صدى كبيرًا في الوسط الثقافي الجزائري. مما شجع المجلة على نشرمقال آخرفي العدد ذي الحجة ١٣٤٧هـ/يونيو ١٩٢٩ عن الأحوال الاجتماعية والسياسية في المملكة العربية السعودية وهو نص منقول عن جريدة الشورى وكتبه المفكرالنمساوي المسلم **محمد أسد** مع تعليقات الشيخ ابن باديس.

وقد أثرالعلماء الجزائريون الذين عادوا من الحجازفي الحياة العلمية والدينية في الجزائروكان من أبرزهم الشيخ محمد البشيرالإبراهيمي والشيخ الطيب العقبي والأديب أحمد رضا حوحو ومحمد طاهرالعنيزي.يقول مالك بن نبي عن تأثيرهذا الأخير: «كان يتحدث بلهجة البدوي القادم من الجزيرة العربية. لقد كانت ثقافته في وسطنا..لقدكان ثائرًا على كل شيء، ولم أره يوما يمدح أحدًا أو شيئًا من الأشياء...ووضع كثيرًا من القضايا موضع بحث وتدقيق... هكذا كان نسق ثورته،يضع قشًا على الجمرة المشتعلة في النفوس... وفصاحته العربية كانت تمارس تأثيرها في العقول التي تفكرأو تتكلم الفرنسية»[٥].

تداول الناس عبرالأزمنة الروايات المتعلقة بالحج والأراضي المقدسة. فإذا كان العلماء يسجلون انطباعاتهم في كتبهم حتى صارالمغرب العربي نموذجًا في أدب الرحلات، يصفون فيها بشكل دقيق أحوال الدول وطبائع الناس والوقائع المختلفة، فإن عامة الناس تتناقل الأخبار والقصص عبرالروايات الشفوية. وسمع مالك بن نبي كثيرًا منها في جلساته في مقاهي قسنطينة والتبسة.وربطته مبكرًا هذه القصص بالبقاع المقدسة وبقيت راسخة في مخيلته وظل قلبه معلقًا دائمًا بعوالم مكة وعمل فيما بعد على زيارتها ومشاهدة نفسه معالمها والاستمتاع بجوها الروحاني الفريد. وسمعها أيضًا من والدته التي تجيد الفن القصصي وسجل هذه

اللحظات المهيبة في يومياته: «كانت والدتي تنتظرني لتقص عليّ قصة حجّها... واسترسلت، وكنت أخشى أن تسكت عندما ترى دمعي، على الرغم من أن الغرفة كانت نصف مظلمة (...). ولكن كان الحديث مؤثرًا تهزني منه أحيانًا هزات لاأستطيع كبتها، فأتظاهربالعطش حتى أذهب إلى الشرفة حيث توجد برادات الماء فأطلق العنان للدمع»[٦]. وبقيت هذه المشاهد راسخة في ذاكرته وستؤثر كثيرًا على تربيته وشخصيته وحياته.

ليست لدينا لحد الآن معلومات دقيقة عن رحلات مالك بن نبي إلى البقاع المقدسة ونجهل أهم نشاطاته خلال موسم الحج. ولاندري بالضبط كم من مرة حج في حياته؟

لقد حج مالك بن نبي لأول مرة سنة ١٩٤٧ برفقة صديقه الدكتورعبدالعزيز الخالدي رئيس البعثة الطبية الجزائرية. وذكربن نبي في كتابه *الفكرة الأفريقية ـالآسيوية* أنه حج في سنة ١٩٥٥[٧]. ونعرف جيدًا أنه حج للمرة الأخيرة في حياته وألقى محاضرته الشهيرة: «رسالة المسلم في الثلث الأخيرمن القرن العشرين»[٨]. ويكون هكذا قد حج على الأقل ثلاث مرات في حياته.

زارت أسرة مالك بن نبي كلها تقريبًا البقاع المقدسة وأدى جل أعضائها فريضة الحج كجدته ووالدته ووالده وحتى الأطفال كبنت أخته الكبرى التي حجّت وعمرها خمس سنوات. وخلال زيارات مالك بن نبي لمكة نسج شبكة من العلاقات مع المثقفين السعوديين الذين قاموا بدورهم بزيارته في بيته بالجزائر العاصمة واستمعوا إلى أحاديثه وتبادلوا معه الآراء[٩].

مكة بين الماضي والحاضر:

تميزفكرمالك بن نبي بالربط الدائم بين الماضي والواقع وبين الحاضروالغابر. تكلم عن صنفين من مكة. ذكرأولا مكة التاريخية التي شهدت نزول الوحي

على النبي صلى الله عليه وسلم بعوالمها المختلفة من رجال الصحابة وقوافل التجارة وغيرها من المشاهد. وهذه هي مكة التي رسخت في مخيلته وتعاطف مع أجوائها وسبح مع عالمها وتفاعل كثيرًا مع ذكرياتها.

وتكلم ثانيًا عن مكة المعاصرة وأشارإلى عصرنة المجتمع المكي بدخول الوسائل الحديثة مثل السيارات والدراجات..[١٠]. وتزاحم حركة المرورخلال فترة الحج ووصف الشرطي الذي يحاول بصعوبة تنظيم مسيرة المارين. وسنحاول في الأسطرالتالية أن تقف عند هذه النظرة المزدوجة المتكاملة التي كونها مالك بن نبي عن عوالم مكة في عصورها القديمة والحديثة.

١ – الحياة الاجتماعية في مكة:

شبّه مالك مكة بمدينة الشهداء بينما صور يثرب مدينة الأبطال. وتتّضح هذه الرؤية من خلال قراءة الأمثلة التي سردها عند الحديث عن مكة فأسماء المستضعفين كبلال بن رياح وعماربن ياسرتتكرر، فعلى أكتاف هؤلاء قامت الدعوة الإسلامية في سنواتها الأولى. ومن مكة انطلقت رسالة الإسلام إلى العالم وفيها تعذب المسلمون الأوائل وتحملوا في سبيل عقيدتهم عذابًا شديدًا. «كانت الدعوة في بدايتها تدوي في أرجاء مكة، فتذود قريش عن أصنامها ومصالحها الدنيوية، وأضحى الذي يعتنق الإسلام يذوق من قريش أنواع الأذى وأصناف التعذيب. ودقت ساعة الشهداء حينئذ كما دقت من بعد الهجرة ساعة الأبطال»[١١]. فهذا عماربن ياسرالذي كان مستضعفًا في مكة،لم يستطع أن ينجي والديه من التعذيب وينقذهما من الموت، يصبح في المدينة المنورة النموذج الأعلى للقوة والحيوية؛ ففي الوقت الذي يحمل فيه كل صحابي حجرة واحدة لبناء مسجد الرسول يحمل عمارحجرين على كاهله. لقد كررمالك بن نبي هذا المثال مرات عديدة في كتبه ومحاضراته[١٢] ليعبرعلى قدرة الإسلام على تفجيرالطاقات الكامنة في النفوس لإقامة مجتمع فاضل وبناء حضارة راقية.

وصف بن نبي الأماكن التي كانت مسرحًا لتعذيب الصحابة بصورة بشعة وشبّهها بمكان آخرفي باريس اشتهرخلال الثورة الفرنسية . «كانت بمكة ساحة المعذّبين والشهداء، وهي تشبه ساحة (دو جريف) بباريس أشتهربشاعته أثناء الثورة الفرنسية، مع فارق هام هوأن الوضع معكوس هنا. ففي ساحة مكة كان الجلادون ضد الثورة، والمعذبون كانوا شهداء الثورة التي سميت الإسلام».

وتوغل مالك بن نبي في فكّ العقدة الاجتماعية التي تربط بين مكة وأهلها. فأشار إلى أن مكة كانت مدينة متفتحة على القبائل العربية يقصدها الناس من كل مكان في مناسبات مختلفة للحج والتجارة والاستقرار. فأسرة بني ياسر استقرت متأخرة في مكة وهنا يقدم لنا مالك بن نبي معلومات عن بداية استقرارها في هذه المدينة ومن خلالها تتضح صورة البناء الاجتماعي لمكة المتكونة من وجهاء القوم والطبقات السفلية: «إن ياسرًا لم يكن من بطن من بطون مكة، ولكنه أتى إليها مع أخوين له، يبحثون عن أخ لهم رابع لم يجدوه، فقررالإخوة الرجوع. إلا أن ياسرًا آثرالبقاء بالمدينة القرشية، وكما جرت عادة القوم فقد والَى أحد بطونها من بني مخزوم فزوجوه من أَمَةٍ اسمها سمية»[١٣].

وظاهرة العبيد السائدة في مكة لم تمرّ دون أن تثيراهتمام بن نبي،فحلّل خلفياتها وفسّرأسباب وجودها وشرح كيف تعامل معها الإسلام داحضًا بذلك شبهات المستشرقين في هذا الموضوع الحساس. «إننا نعلم أن ديمقراطية أثينا لم تعط أي أهمية لهذه القضية؛ قضية الرقيق، إلا من الوجهة الانتفاعية حيث كان الرقيق من مقومات النظام الاقتصادي، حتى أن أحدًا لم يفكرفي إطار هذا النظام في وضع مبدأ لتحريرالرقيق فيكتمل بذلك تقويم الإنسان فيه.بينما يأتي الإسلام فيقررهذا المبدأ بكل وضوح: فيشمل بذلك تقويمه الإنسان الذي وقع في قيد الرق، بمقدمات أو أصول فقهية نجدها في القرآن وفي السنة،وتكون في الواقع تشريعًا لعتق الرقيق بصورة تدريجية...فهذه النصوص كلها تكمل، من

نـواح مختلفـة، التقـويم الأساسـي للإنسـان، التقـويم الـذي يقـوم عليـه المشـروع الديمقراطي، تكميلًا يجعل هذا المشروع يضم في خطوطه العامة مصيرالرقيق إلى مصيرالإنسـان الحـر، وبحيـث يضـيف الرقيـق إلى عـالم الآخـرين، أي عـالم الأشخاص بعد أن كان من عالم الأشياء، وذلك لأول مرة في التاريخ»[١٤]. ومالك لم يقتصرعلى ذكرمسألة الرقيق، بل اهتم أيضًا بالدفاع عن الموقف الإسلامي انطلاقًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومن خلال مقارنتها مع التراث اليوناني والواقع الاجتماعي الغربي.

وقضية المرأة في المجتمع المكي من المسائل التي توقف عندها مالك بن نبي، وذكرما أصابها من ظلم واحتقار. فكان نتيجة لذلك ظهورخلل جسيم في العلاقات الاجتماعية، فالزوجية هي المحرك لعجلة الحياة وعليها تقوم المجتمعات، وقد نجم عن هذه الذهنية الجاهلية عادة وأد البنات التي تمثل بحق أبشع جرائم الإنسان. «لقد كان المجتمع الجاهلي كله تحت سلطة الذكر، وقد كان فيه ما فيه من قسوة، وفيه ما فيه من نزعة التحطيم،حتى أن المولودة كانت توأد، يئدها أبوها». وقد غيرالإسلام هذه العادات بشكل جذري بحيث «أكبت في الذكر دوافع الجفاء والتحطيم.ولم يترك له إلا قدرة التغلب على النفس، وقدرة التنظيم والتوجيه، فكون بذلك مجتمعًا تتمتع فيه المرأة بكثيرمن الحقوق، مقابل بعض والواجبات»[١٥]. يرى مالك بن نبي أن منشأ عادة وأد البنات في الجاهلية يعود سببه الرئيس إلى الجانب الاقتصادي: «لقد كان للظروف الاقتصادية التي عاشها العصرالجاهلي أكبرالأثرفي نشأة تلك العادة الأليمة، إن لم تكن هي العامل الوحيد»[١٦]. والحقيقة أن هناك سبب آخرلا يقل أهمية وهوالخوف من المساس في الشرف من جراء وقوع النساء في الأسر والسبي في الغارات أو الحروب[١٧].

والزواج في مكة يخضع للمراتب الاجتماعية، وكان من الصعب جدًا على الفقراء أن يتزوجوا من الأسرالغنية.فالمهرمثل العائق الأكبرللزواج. وهذا ما يفسّر في نظرمالك بن نبي تأخرزواج الرسول صلى الله عليه وسلم لسنّ الخامسة

والعشرين. «فلم يزل محمد عازبًا، لأنه لم يستطع الزواج، إذ لكي يطلب يد إحدى شريفات مكة ربما وجب عليه أن يدفع صداقًا كبيرًا لا تسمح له به ثروته التواضعة»[١٨]. وهذه العوائق المادية فتحت الطريق للانحراف وترتب على ذلك الفساد الأخلاقي في مكة: «كانت المصابيح الحمراء المعلقة على أبواب الجواري المنحرفات يجتذبن شباب مكة، المولعين بحمل السلاح، وعشق النساء»[١٩].

وصف مالك بن نبي المجتمع المكي بالوسط البطولي حيث يحتل السيف والفرس مكانة كبيرة في قلوب وحياة أهل مكة. ولكن هذه الشجاعة لم ترقى إلى مستوى النفع العام؛ فهي لا تتجاوز نطاق الفرد الذي يفتخر بشجاعته ويستعمل القوة في الجور والفساد. «فظاهرة البطولة كانت في الجاهلية تهدف إلى الغزو والفخر، أي تدور على محور الـ(أنا)، فبدت في صورة جديدة هي الاستشهاد في سبيل مثل عليا، لأن الإسلام رفع المصلحة أو مسوغات النشاط إلى أعلى مستوى، فجعلها في عالم الآخرين. فالبطولة في الجاهلية كانت تهدف إلى إعلاء شأن الـ(أنا)، لكن الإسلام حول محور البطولة لتجد مسوغاتها في عالم الآخرين، أي تعبر عن اهتمام أسمى، يرتبط بغريزة الـ(نحن) أكثر منه بالـ(أنا)، حتى أنهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر/٩) فهذا تعبير كامل لمسوغات البطولة»[٢٠]. وبناء على فهم المعنى الحقيقي للبطولة في الحياة حقق العرب انتصارات كثيرة وقاموا بفتوحات واسعة شرقًا وغربًا في فترة زمنية قصيرة.

والقبيلة في الجاهلية تمثل المحور الأساس الذي تدور حوله حياة الناس، وأكبر هذه القبائل كانت تسكن في مكة، أعظم حواضر العرب، «البيئة الجاهلية تمثل أصدق تمثيل مجتمعًا هو في عمر (الشيء)، ويجب أن نلاحظ إضافة إلى ذلك أنه في هذا المستوى من مرحلة ما قبل التحضر؛ فإن عالم الأشياء يكون هو نفسه شديد الفقر وتكون فيه الأشياء بدائية: كالسيف، والرمح، أو الوتد، والكنانة،

والقوس، والسهام، والجمل،والحصان، والسرج، دون ركاب،أو مزود بسند خشبي بسيط... والخيمة، والأدوات المنزلية الهزيلة المقرونة بحياة البداوة..ومهما يكن من أمرفإن عالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي قد انحصرفي حجم القبيلة»[٢١]. دائرة القبيلة لم تتوسع للدولة والحضارة إلا مع ظهورالإسلام في الجزيرة العربية.

الحياة الدينية في مكة:

تتميزالحياة الروحية في مكة بقلة الاكتراث بالدين. ولم تتمكن عقول العرب من بلورة صورة ذهنية للإله خارج عالم الأشياء، لذا صنعوا آلهة مجسمة وبنوا لها معابد يعتكفون فيها على عبادة التماثيل وكان أشهرها هبل واللات والعزى. ويتصوربعضهم ممن بقيت فيهم ذكرى إبراهيم و إسماعيل عليهما لسلام، أن هذه الآلهة المجسمة تقربهم إلى الله، وتقضي لهم حاجاتهم، وتفتح لهم أبواب الخير، وتدفع عنهم الفقر، وتبعد عنهم الشر: «إننا نعلم عن هذا العصرأن العادات الوثنية في المجتمع الجاهلي كانت قائمة على أساس قديم من التوحيدالتقليدي... ولكن هذا التوحيد اللاشعوري لا يستتبع أية شعائرخاصة.. فقد كانت (مكة) منذ زمن طويل منظمة تبعًا لوحدة قبلية ملفقة، تجعل هبل واللات والعزى على رأس مجموعة آلهة القبائل العربية كلها، ولكن الأسرالكبيرة في مكة ـ بفضل التأثيرالسياسي والتجاري ـ قد استمسكت فوق هذه الوحدة الوثنية الملفقة بوحدانية غامضة، تنعكس في الذكرى التي حفظوها باعتزاز وفخرلجدهم البعيد إسماعيل، وعلى كل فإن هذه الذكرى لم تكن لتؤثرمطلقًا على عقائد العرب، أو تقاليدهم الحربية، وهذا يفسرلنا الصراع القاسي الذي سينشب بين المتمسكين بهذا النظام الجاهلي، وبين الإسلام الوليد»[٢٢].

وبقيت في مكة فئة قليلة من الحنفاء يعبدون الله وحده ولم تكن لهم صلة بأهل الكتاب من اليهود والنصارى: «الحنفاء كانوا رجالا من طراز نادر، تركوا وثنية عصرهم لكي يعكفوا على عبادة إله واحد، لكن حياة التصوف التي

عاشها هؤلاء النساك لم يصحبها أي نظام خاص، أو شكل من أشكال الطقوس، وبالأحرى لم يكن لهم أي اتصال روحي بطائفة من أهل الكتاب، فإن مصادر العصرالتاريخية لا تصف أية كنيسة في مكة، أوأي كنيس أوديرفي ضواحيها؛ لقد انسحب الحنفاء فقط في أماكن منعزلة، دون أن يقطعوا صلاتهم تمامًا بالمجتمع»[٢٣]. وكان هؤلاء «ينتظرون النبي الموعود في سلالة إسماعيل»[٢٤].

لم تكن مكة مركزًا دينيًا مسيحيًا أو يهوديًا. ويؤكد مالك بن نبي على خلوّ مكة من كل ما يدل على وجود كنيسة أو معبد يهودي: «لم يثبت أن كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني، ليقوم بنشرفكرة الكتاب المقدس...»[٢٥]. ويدعم هذا الكلام عدم وجود ترجمة عربية للإنجيل، إلا في سنة ١٠٦٠م وكذلك بالنسبة للتوارة.

الحياة الثقافية في مكة:

لم تكن مكة أيضًا مركزًا ثقافيًا وحضاريًا قبل الإسلام. وكان الشعربجميع أنواعه يمثل الذاكرة الفكرية والثقافية لعرب مكة.«إن لكل شعب هواية يصرف إليها مواهبه الخلاّقة، طبقًا لعبقريته ومزاجه، فالفراعنة مثلًا كان لهم اهتمام بفنون العمارة والرياضيات، يدلنا عليه ما بقي بن أيدينا من آثارهم العظيمة.. كما كان اليونان مغرمين بصورالجمال، على ما أبدعه فن فيدياس، وبآيات المنطق والحكمة على ما جادت به عبقرية سقراط. أما العرب في الجاهلية،فقد كانت هوايتهم في لغتهم، فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية، شأن الشعوب الأخرى، وإنما كان العربي يفتنّ في استخدام لغته، فينحت بها صورًا بيانية لا تقل جمالًا عما كان ينحته فيدياس في المرمر، وما كانت ترسمه ريشة يوناردو دي فانشي في لوحاته المعلقة في متاحف العالم الكبرى»[٢٦].

ويؤكد في موقع آخر على عجز المجتمع العربي على الإبداع خارج مجال الشعر،وهذا العجز كان كبيرًا إلى درجة عجيبة بحيث «إذا بحثنا عن إنتاجه قبل (العهد القرآني) مثلا في الفترة التي تقدر بأربعة آلاف سنة من عهد إسماعيل إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم،نجده ينحصر في عشر معلقات، وهذا معناه أن الطاقات الاجتماعية، طاقات القلب والعقل واليد، في حالة غير حالة التوتر الاجتماعي الذي يدفع إلى الإنتاج بقوة وحرارة، وحينما جاء الإسلام استطاع أن يخلق حضارة خلال نصف قرن»[٢٧].

وخلاصة القول أن عالم أفكار المجتمع المكي في الجاهلية «قد تمثل بوضوح في تلك القصائد المتألقة الشهيرة بالمعلقات، وهو بالإجمال ـ بشأن عالم أشخاصه ـ عالم محدود يستقي منه الشاعر الجاهلي أبياته البراقة ليشيد بمجد قبيلته وانتصارها في أحد الفصول الملحمية التي حفظتها ذاكرة التاريخ تحت اسم (**أيام العرب**)، ويتغنى بذكرى حبيبته،أو يبكي كالخنساء، بطلاً هوى،أو يسعى لتخليد اسم كاسم حاتم الطائي لجوده وحسن ضيافته، وهكذا كان وجه ذلك المجتمع الجاهلي المنغلق على نفسه والذي كانت تتلاشى على أرباضه بحركات المد والجزر التاريخية الأمم العظيمة التي جاورته: الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية، ومملكة الحبشة في الجنوب»[٢٨].

والنظام القبلي لم يتطور كذلك ليشكل إطارًا يسمح بإقامة دولة وبناء حضارة إلا بعد الهجرة النبوية وتأسيس دولة المدينة؛ فالمجتمع المكي كان منغلقًا على نفسه، والتجارة العالمية التي يمارسها أهل مكة لم تكن لتؤثر على حياتهم وتغيير أشكالها.فعلى الرغم من إحاطتهم بمجموعة من الحضارات والشعوب كالبيزنطيين والفرس وأهل الحبشة إلا أن هذا التقارب كان غير كافٍ لإمداد قريش بالحضارة بسبب غياب الوعي الحضاري وعدم الاكتراث بالمتغيرات الكونية.ونظرة إلى تراث مكة الجاهلي المتمثل بشكل خاص في الشعر توضح قصور معرفة عرب مكة لطبائع الشعوب الأخرى المجاورة لها وقلة اهتمامهم

بـأحوالهم وبالتـالي عجـزوا عـن إدراك التحـديات: «إن معـارف العـرب عـن الحيـاة الاجتماعية والفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة، إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي الذي يعد مصدرًا قيّمًا للمعلومات في هذا الموضوع»[٢٩].

مشاهد من عالم أشياء مكة:

وسوف يتركزحديثنا في هذه الأسطرعلى عالم آخرمن عوالم مكة وهوعالم الأشياء وهو يدورحول المشاهد التالية:

غارحراء:

وضع مالك بن نبي الدعوة الإسلامية في سياقها التاريخي و إطارها المكاني، وبيّن كيف ظهرت إرهاصاتها في عزلة محمد في غارحراء.فهي تعدّ في نظره «مرحلة رئيسية ـ من الوجهة النفسية ـ بالنسبة لتاريخ الدعوة»[٣٠]. واستغرق في هذه العزلة سنوات معتكفًا في غارحراء بعيدًا عن الناس ومشاغل الدنيا وجواذب الحياة.»والواقع أنه قد توارى واختفى عن أعين الزمان،لكي يبقى خلال خمسة عشرعامًا معتزلاً مكة، أو معتزلاً غارحراء»[٣١]. ويقول أيضًا في نفس المعنى ومؤكدًا على أن العزلة كانت ظرفية خرج بعدها الرسول صلى الله عليه وسلم ليبدأ مرحلة أخرى ويبلغ رسالة الإسلام التي بعث بها: «وكل ما في الأمر أن هذا الرجل الذي اختفى من مسرح التاريخ خلال خمسة عشرعامًا،سيظهرعلى هذا المسرح خلال ثلاثة وعشرين عامًا لكي يعيش ويفكرويتكلم ويعمل في رابعة النهار، أكثرمن أي وقت مضى»[٣٢].

والحقيقة أن مالك بن نبي قدم عزلة الرسول صلى الله عليه وسلم في غارحراء في صورة مبالغة وأعطى لها وقتًا أكبرحدده بخمس عشرة سنة في حين أن كتب السيرة والتاريخ أشارت إلى فترة قصيرة. وهذا ما نبّه له الدكتورمحمد

عبدالله دراز الذي كتب مقدمة لكتاب *الظاهرة القرآنية* ونصح صديقه بن نبي على مراجعة معلوماته. كان الرسول يعتكف في غارحراء شهرًا في كل سنة وكانت حياته طبيعية وعادية لم تطبعها أية مسحة صوفية.

وهكذا أصبح غارحراء مهدًا للدعوة الإسلامية فيه أنزل القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أعماقه انطلق صوت الإسلام يعلو في سماء العالم ويدوي في أصقاع الأرض مبشرًا ببداية عصرجديد.«فجأة أضاءت فكرة في غار، غارحراء، حيث منعزل يقوم فيه متأملا. وحمل وميضها رسالة بدأ بكلمة اقرأ. مزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية، وقضت على عزلة المجتع الجاهلي. ورأى النورمجتمع جديد متفاعل مع العالم ومع التاريخ، فشرع يهدم ما بداخله من حدود قبلية ليؤسس عالمه الجديد من الأشخاص؛ حيث كل أضحى حامل رسالته، وليبني عالمًا ثقافيًا جديدًا تتمحورفيه الأشياء حول الأفكار»[٣٣].

ويحدد مالك بن نبي بداية ونهاية المرحلة الأولى من التاريخ الإسلامي بالفترة الممتدة بين بداية الوحي في غارحراء ومعركة صفين سنة ٣٢هـ[٣٤]. وعبّر عن هذه الفكرة **بمرحلة الروح** في الرسم البياني الذي وضعه في كتابه *شروط النهضة*. وكررمالك بن نبي هذا المعنى في مواقع كثيرة من كتبه.فبداية الوحي في غارحراء كان منبع الرسالة والدعوة،نزلت فيه الآيات القرآنية الأولى والتقى فيه النبي مع سيدنا جبريل عليه السلام لأول مرة، بينما كانت معركة صفين ساحة صراع دموي بين المسلمين تركت صدعًا عميقًا في الجسم الإسلامي، ووضعت حدًا فاصلًا لمرحلة الخلافة الراشدة وانتهت بذلك مرحلة الروح لتبدأ مرحلة الغريزة حسب تعبيره.

الكعبة:

كانت الكعبة في الجاهلية «معبدًا للأصنام،أو مسرحًا سياسيًا للأُسر السائدة»[٣٥] في مكة.وكانت الكعبة لا تتجه لها الأنظار كمعبد للأصنام فقط

و إنما أيضًا كمكان تعلّق على جدرانه قصائد الشعراء المرموقين في الجاهلية. وكان شباب مكة يأملون أن تسجل أسماؤهم إلى جانب أسماء أصحاب المعلقات الشهيرة.يقول مالك في هذا الصدد: «يحملون بشجاعة عنترة وغرام امرئ القيس، وكل منهم يمنّي نفسه بتخليد اسمه، ويودّ لو يعلّق ذات يوم معلّقته على أستار الكعبة»[٣٦].

وفي يوم فتح مكة قام الرسول صلى الله عليه وسلم بتحطيم هذه الأصنام التي كانت تعبد داخل الكعبة وطهرها من الشرك والدنس وأرسى دعائم الإيمان والتوحيد. ويعلق مالك بن نبي على هذه الواقعة ويصف هذا المشهد العظيم بلحظة «**انتصارالفكرة وانهيارالأصنام**»[٣٧].

ولقد ذكرت له والدته مسألة تنطوي على قدربالغ من الأهمية، تتمثل في إشارتها إلى الحمامات التي شاهدتها تطوف بالبيت العتيق ولاتطيرفوقها[٣٨].

وطواف الحمامات حول الكعبة أثارت انتباه العلماء والشعراء قديمًا وحديثًا وقد اختلف المؤرخون في أصول هذه الحمامات[٣٩]. ومهما اختلفت الروايات في هذه القضية فإن مجاورة هذه الطيورللكعبة كانت منذ عصورقديمة وهي تزيد مشهد الحرم المكي بهاء وجمالًا. ودخلت هذه الصورة في الأذهان والتقطتها العيون ورسخت في ذاكرة الحج.وهو ما يعكس العقلية العربية الحريصة على الرموز أكثرمن المضامين وبغض النظرعن محتواها المنطقي والعقلي.وهذا ما جعل مالك بن نبي يتساءل عن صحة ما تقوله والدته. فهو لا يشك في وجود هذه الحمامات ولكنه يتساءل هل حقيقة تطوف بالبيت ولاتطيرفوق الكعبة كما تدّعي والدته الحاجة؟

لاحظ بن نبي خلال حجّه التزاحم عند الطواف حول الكعبة. «يسحق أمرؤ بكل معنى الكلمة،بزخم العديد الذي لا يحصى من الحجيج الذين يطوفون حول الكعبة، أو تتقطع أنفاسه بضغط تلك الآلة الضخمة من الكتل البشرية التي

تتحرك في طوائفها». ويقارن ذلك بالحج في العصور القديمة فيقول: «الأمر في ذلك الزمن كان مختلفًا. والحاج في وسعه أن يتم أشواط الطواف براحة، ويتفحص خلالها الوجوه إذا أراد كما يمكن له أن يتخذ منها معارف»[٤٠]. ويدعم ذلك بذكر أحد أصدقائه الجزائريين الذي يلتقي مرارًا بحاج إفريقي وأبنائه الصغار الأربعة خلال الطواف حول الكعبة. وتمت بينهم معاملات تدل على عظمة هذا الدين الذي لا يفرق بين البشر في ألوانهم وأموالهم وحَسَبهم ونسبهم، وتجسد على أرض الواقع المعنى الحقيقي للأخوّة الصادقة.

جبل عرفات:

مالك بن نبي يعتبر وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم بجبل عرفات وهو يلقي خطبة حجة الوداع مفصلًا هامًا في تاريخ الدعوة الإسلامية، وحاول مرارًا أن يقف عند نصّ الخطبة ويتمعّن في معانيها العميقة ويحلّل أبعادها المستقبلية البعيدة[٤١]. وهذا الجمع الغفير يمثل ثمرة طيبة لغرس طيب ومرحلة حاسمة في مسار الإسلام الذي تجاوز مرحلة تكوين الإنسان و إنشاء المجتمع ليبدأ مرحلة التوسع والانتشار وتشكيل أمة وبناء حضارة تقوم على وحدة الدين وتنوع المسلمين. ومضمون الخطبة وقداسة المكان والجو الروحاني الذي ألقيت فيه تبعث في قلوب الآلاف من الحجاج المتضرّعين إلى الله الطمأنينة والسكينة وتزيد الموقف عظمة وخشوعًا وهيبة. وهذا المشهد الرائع مازال يتكرر إلى اليوم يشعر به الحجاج المسلمون في كل عام عند وقوفهم بجبل عرفات وهم يتأملون ويتذكرون الأنبياء والصحابة والصالحين الذين عبدوا و دعوا الله من قبل في هذا المكان. ويقول المفكر المسلم مراد هوفمان ـ الذي وقف في جبل عرفات في عام ١٩٩٢ ..بعد أن تحدث عن خطبة حجة الوداع: «وهذا نفسه هو ما أشهده اليوم مع مليونين ومائتي ألف من النساء والرجال من أنحاء العالم كافة»[٤٢].

وفي هذه الخطبة صدع الرسول بالأسس التي قام عليها المجتمع المكي في

الجاهلية بمعتقداته الباطلة فأزال الشرك وبعاداته البالية فأقام علاقة جديدة بين الناس قوامها الصلاح والتقوى والمساواة وليس اللون والجاه وأوصاهم بمكارم الأخلاق والتمسك بتعاليم الكتاب والسنة وبيّن لهم رسالتهم نحو غيرهم من الشعوب والأمم.

سوق عكاظ:

كانت مكة مدينة تجارية منذ القديم وحافظت دائمًا على نشاطها التجاري وتضاعفت أسواقها وتنوعت بضائعها. وكان من بين أشهر تجارها في الماضي أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان «قائدًا ورائدًا للقوافل المكية، فكان يذهب في مواسم معينة إلى مراكز التجارة الشامية، لمقايضة منتجات الهند واليمن بمنتجات بلاد البحر الأبيض المتوسط»[٤٣]. وهذه الأسفار عبّر عنها القرآن الكريم برحلة الشتاء والصيف في سورة قريش.

وتزداد مكة نشاطًا وحيوية في موسم الحج. وكانت من عادات الحجاج أن يحملوا عند عودتهم إلى بلدانهم وديارهم هدايا كثيرة. ونال مالك بن نبي نصيبًا من هذه العطايا: «تقاليد الحجاج الموروثة أبًا عن جد أن يعود كل واحد بأكثر ما يمكن من الهدايا فرجعت والدتي بهدايا متنوعة خصوصًا لزوجي المقبلة ولأولادي المقبلين حتى العقال البدوي والعباءة العربية ليوم ختان أول أبنائي زيادة على المسابح الثمينة وأدوات منزلية غالية من خزف صيني ويباني وصينيات دمشقية»[٤٤]. وتدل هذه الأمثلة على رواج التجارة في مكة وعلى تعدد بضائعها التي تصل إليها من مختلف بقاع العالم، فتمثل بذلك سوقًا عالمية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ. وقد كانت دكاكين مكة مضرب المثل في الجزائر.

وتأخذ كلمة سوق عكاظ معنى الحركة والفوضى[٤٥] عند مالك بن نبي، ويستعمل هذا المعنى حين يتحدث عن التدافع السياسي الذي ظهر في الجزائر في

عام ١٩٣٦.وهي سنة عرفت حركة سياسية قوية من خطابات وتجمعات في المقاهي والأسواق. وتحول العمل التربوي إلى نرجسة سياسية. وهي ظاهرة انتقدها بشدة مالك بن نبي في عديد من كتبه واعتبرها انحرافًا وخطأ سياسيًا سيؤثر مستقبلا بشكل سلبي على مصيرالحركة الوطنية الجزائرية.

رسالة الحج ومسالك الحجاج:

ما هي رسالة الحج ومعانيها السامية في نظرمالك بن نبي؟ كان اهتمام مالك بن نبي موجهًا للمعاني الروحية والحضارية للحج ولم يخُض في المسائل الفقهية. وأكد على أن الحج فرصة ثمينة للمسلمين أن يقووا صفوفهم ويدعم بعضهم البعض. وهذه الفريضة الدينية شرعت من أجل ترسيخ صلة الأخوة وبث روح التعاون وتشجيع التعارف بين المسلمين الذين يقصدون بيت الله الحرام في كل عام من جميع أصقاع العالم عابدين، متضرعين وخاشعين، يرجون رحمته ويخافون عذابه. وقد تأسف كثيرًا حين رأى خلال حجّه في سنة ١٩٥٥ غياب الجانب الاجتماعي والتعاون بين البعثات الإسلامية[٤٦]. فإن الأطباء المسلمين لا يهتمون إلا بمرضى بلدانهم ولا يكترثون بغيرهم.فالحواجزالسياسية والجغرافية التي صنعها الاستعمار، مازالت راسخة في العقول وبقيت عميقة في النفوس على الرغم من غياب الاستعمارنفسه في هذه الأراضي المقدسة. ولاحظ أيضًا جشع بعض الأطباء الذين لا يداوون إلا أصحاب المال والنفوذ. فالجوالروحاني لم يكن كافيًا ليؤثرعلى طبائعهم السيئة ويقضي على أطماعهم المادية.

إن هذه الصورة القاتمة الوحيدة لم تغطِّ الجوانب المضيئة للحج. فالأمن والاستقراروالخير يمثلون أجواء مكة.وقد حاولت والدة مالك بن نبي أن تحررأمة بمكة ولكنها رفضت ذلك إلا بشرط أن تسافرمعها إلى الجزائر.فهي تفضل أن تعيش مقيدة في حريتها ولكن ترفض أن تعيش في الفقروالحاجة[٤٧]. وحدث أيضًا لوالدته أن وجدت محفظة نقود في الطريق، فلما حملتها وقدمتها لصاحب

الفندق الذي تقيم فيه، نبهها إلى أن تترك المحفظة في مكانها حتى يستعيدها صاحبها. فلاأحد يسرقها في هذا المكان المقدس. وهذه الوقائع تركت تأثيرًا عميقًا في نفسية مالك بن نبي، وزادته حبًا وشوقًا للسفرإلى هذه البقاع الطاهرة.

إن تطوروسائل النقل ساعدت كثيرًا على توفيرالراحة للحجاج. فابن نبي تحدث عن السفرعن طريق البحر كما فعل والده أوالسفرعن طريق البرعلى الأرجل أو في الحافلات التي تمرعبرالتراب المصري. وبين لنا مالك بن نبي كيف يغيّرالحاج الجزائري نظرته للأشياء عندما يمر بالأحياء الشعبية والأحياء الراقية في القاهرة فيصطدم بهذه المفارقة المحرجة وتؤثرفيه هذه المشاهد المتناقضة فتغير بذلك مقاييسه للأشياء. يقول مالك في هذا الصدد: «هناك انقلاب واضح في سلّم الأشياء؛ إذ أن الحاج قد ولد في عالم تقاس فيه الأطوال على مستوى المساجد كمسجد ابن طولون أو الجامع الأزهروهو يحيا الآن في عالم، تقاس فيه الأطوال على مستوى بناية إدارية..وهذا الانقلاب يمثل عرضًا من أعراض تطور العالم الإسلامي»[٤٨].

مارست حكومة الاحتلال الفرنسية مراقبة على رحلات الجزائريين للحج إذ ترى فيها مصدرًا أساسيًا لنقل الثقافة العربية وجسرًا لعبورالأفكارالإصلاحية إلى الجزائر. وهذه حقيقة تاريخية فكثيرمن أخبارالعالم الإسلامي والكتب والصحف العربية تتسرب إلى الجزائرعن طريق الحجاج. وذكرمالك بن نبي كيف ذاعت أخبارانتصارات كمال أتاتورك على القوى الاستعمارية وانتشرت صوره في قسنطينة وتنافس الشباب الجزائري على اقتنائها وعلقها في بيوتهم. **وعلى الرغم من هذه المراقبة، دخلت إلى الجزائر كتب زعماء الإصلاح الممنوعة ككتاب *أم القرى* للكواكبي، و*لماذا تأخرالمسلمون وتقدم غيرهم؟* للأميرشكيب أرسلان وتفاعل معها الناس.**

منعت حكومة الاحتلال الجزائريين من الحج في سنة ١٨٨٦ ولم تتراجع عن

هذا القرار المجحف إلا في عام ١٨٩١ وقيدته بعدة شروط. وكان عدد الحجاج ١٥٠٠ في ١٨٩١و١٧١٧ في ١٨٩٢ و٧٠٠٠ في ١٨٩٣ ومنع الحاكم العام الفرنسي بالجزائر الحج في عام ١٨٩٧ لسبب الحرب الواقعة بين الدولة العثمانية واليونان[٤٩]. وأمام التدخل السافر لحكومة الاحتلال في التحكم ومراقبة الرحلات إلى الحج، أصدر الجزائريون في عام ١٩٠١ جريدة بعنوان «فريضة الحج» للدفاع عن هذا الركن الخامس من الإسلام.

وفي عام ١٩٤٧،لم تسمح الحكومة الفرنسية إلا لـ١٦٠٠ جزائري للحج فاحتجت الصحف الجزائرية على هذا القرار إذ ليس من المعقول أن يمنع الاستعمار الجزائريين من الحج إلى بيت الله الحرام ولا يمنع الصهاينة من الهجرة إلى فلسطين العربية. ودعت إلى أداء هذه الشعيرة الدينية بغض النظر عن قرارات الحكومة الفرنسية المتعسفة[٥٠].

وتمارس حكومة الاحتلال مضايقات شديدة على الرحلات الخاصة بالحج وتسعى في الوقت نفسه إلى تحسين صورتها لدى الرأي العام الإسلامي. لاحظ والد بن نبي تقلب معاملة الموظفين الفرنسيين تجاه الحجاج الجزائريين فقد كانت لطيفة عند ذهابهم إلى البقاع المقدسة ولكنها تغيرت تمامًا عند عودتهم إلى الجزائر. ولا شك أن حكومة الاحتلال كانت تسرب جواسيسها في صفوف الحجاج الجزائريين قبل أن تلجأ فيما بعد إلى تعيين مسؤولين رسميين على البعثات لمراقبتهم من قريب.

وقد ضاق الجزائريون من هذه الممارسات واختار العديد منهم الهجرة نحو الشام والحجاز، الشيء الذي أثار تخوف الحكومة الفرنسية. ولإيقاف هذا النزيف البشري، أرسلت بعثات في مهمات سرية إلى مكة للحصول على فتاوى علماء الحرم تمنع الجزائريين من الهجرة من بلادهم التي تبقى دار إسلام وليس دار حرب رغم الاحتلال والاستعمار[٥١].

عمل مالك بن نبي وزوجته الفرنسية المسلمة على الاستقرار في الحجاز بعد

تخرجه من مدرسة اللاسلكي بباريس هروبًا من هذه المضايقات، فهو يدري أنه لا مكانة له في الجزائرالمستعمرة ولا في فرنسا التي لا تستسيغ فيها الحياة لمثقف مسلم يحمل هموم أمته الإسلامية ويسعى لنهضتها الحضارية،فمراصد الصراع الفكري لن ترحمه. وكشف عن هذه الرؤية البعيدة في مذكراته بصورة واضحة: وتأكدت لدية فكرة السفرإلى الحجاز، فرارًا من العيش في أرض استعمارأو في أرض مستعمرة، لأنني سئمت فيها الوجوه والآفاق[٥٢].

وكان لكل واحد منهما مشروع خاص لخدمة هذا البلد: فزوجته خديجة تقوم بالزراعة وتربية الحيوانات على الطريقة الغربية وتعليم الخياطة للبنات السعوديات. أما مالك بن نبي فيشتغل بتجارة العطورالفرنسية أو تحويل بقايا أضحية العيد إلى أسمدة وتحويل الحرارة الشمسية إلى طاقة..

ومنتهى القول أن مالك بن نبي قد رسم لنا صورة عن الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في مكة وهي إشارات سريعة ولم تكن دراسات مطولة ولكنها عميقة ومركزة، تُبرزبوضوح كيف شكلت مكة وعوالمها المتعددة جزءًا من قضاء طفولته، ومصدرًا لثقافته ومخياله وملجأ لوحشته ومنبعًا فياضًا لفكره.

ونتمنى أن تكون هذه القراءة إضافة جديدة تساهم في معرفة ما تولد عن هذه العوالم من تصورات فكرية عند بن نبي وتساعد على فهم إسهاماته المعرفية التي تركت آثارًا عميقة في الفكرالإسلامي المعاصر.

الهوامش:

١ .د. عمربن قينة، *إتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة*. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥،ص ٦٨ –٨٩: ٣٢١ - ٣٢٧.

٢ .د.مولود عويمر. الحجازفي مذكرات مالك بن نبي.مرايا، باريس ، العدد ٢، ربيع ٢٠٠٢.

٣ .د.عبدالسلام الهراس. ذكرياتي مع مالك بن نبي في مصر. الفيصل،الرياض، العدد ١٩٦، نيسان ١٩٩٣، ص ١٦ - ١٧.

٤ .د. محمد عبدالرحمن الشامخ: *نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية*. الرياض، دارالعلوم، ١٩٨٢، ص ١٠٧.

٥ .مالك بن نبي. *مذكرات شاهد القرن*.دمشق، دارالفكر، ١٩٨٤، ص ١٠٨.

٦ .*مذكرات شاهد القرن*، ص ٢٩١.

٧ .مالك بن نبي.*فكرة الإفريقية الآسيوية*.دمشق، دارالفكر، ١٩٨٦،ص ٢٣٣ –٢٣٤، وانظر أيضًا كتابه فكرة كمنويلث إسلامي.دمشق، دارالفكر، ٢٠٠٠، ص ٢٩.

٨ .طبعت المحاضرة في سنة ١٩٧٨ مع محاضرة أخرى في كتاب بعنوان *دورالمسلم ورسالته في الثلث الأخيرمن القرن العشرين*.

٩ .د.عبداللطيف عبادة.*صفحات مشرقة من فكرمالك بن نبي*. الجزائر، دارالفرقان، ٢٠٠٢،ص ١٦٢.

١٠ .فكرة كمنويلث إسلامي، ص ٢٩.

١١ .مالك بن نبي. *بين الرشاد والتيه*.دمشق، دارالفكر، ٢٠٠١ ، ص ٦٢.

١٢ .مالك بن نبي.*شروط النهضة*،دارالفكر،بيروت،-دمشق، ٢٠٠٠، ص ٦١: *الظاهرة القرآنية*. دارالفكر، بيروت –دمشق، ٢٠٠٠، ص ١٣٩، *القضايا الكبرى*، دارالفكر، بيروت –دمشق، ١٩٩١، ص ١٠٧: *تأملات*،دارالفكر،بيروت -دمشق ، ٢٠٠٢ ، ص ٤١ و ١٨٠.

١٣ .*بين الرشاد والتيه*،ص ٦٣.

١٤ .*القضايا الكبرى*، ص ١٥٠' تأملات، ص ٨١.

١٥ .مالك بن نبي .*في مهب المعركة*، دارالفكر، بيروت -دمشق، ٢٠٠٠، ص ٩٨ - ٩٩.

١٦ .مالك بن نبي.*ميلاد مجتمع*. دمشق -بيروت، دارالفكر، ٢٠٠٢، ص ٤٩.

١٧ .د.سعد زغلول عبدالحميد.*في تاريخ العرب قبل الإسلام*، بيروت، دارالنهضة العربية،١٩٧٦، ص ٣٠٩.

١٨ .*الظاهرة القرآنية*، ص ١١٤.

١٩ .المرجع نفسه، ص ١١٣.

٢٠ .تأملات،ص ٤٢.

٢١ .مالك بن نبي.*مشكلة الأفكارفي العالم الإسلامي*.دمشق -بيروت،دارالفكر، ٢٠٠٢ ، ص ٣٩ - ٤٠.

٢٢ .*الظاهرة القرآنية*، ص ١١٦.

٢٣ .نفسه،ص ١١٦ - ١١٧.

٢٤ .نفسه،ص ١١٤.

٢٥ .نفسه،ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

٢٦ .نفسه،ص ٦١.

٢٧ .*تأملات*، ص ٤٠.

٢٨ .*مشكلة الأفكارفي العالم الإسلامي*، ص ٣٩ - ٤٠.

٢٩ .*الظاهرة القرآنية*، ص ١٥٤ - ١٥٥.

٣٠ .نفسه،ص ١١٩.

٣١ .نفس المرجع، ص ١١٩.
٣٢ .نفسه،ص ١٢٠.
٣٣ .*مشكلة الأفكارفي العالم الإسلامي*، ص ٣٩ - ٤٠.
٣٤ .*شروط النهضة*، ص ٥٨.
٣٥ .*الظاهرة القرآنية*، ص ١١٦.
٣٦ .نفسه،ص ١١٣.
٣٧ .*شروط النهضة*، ص ٢٠.
٣٨ .*مذكرات شاهد القرن*،ص ٢٩٢.
٣٩ .*الحج والعمرة*. العدد ٨، شعبان ١٤٢٤، أكتوبر٢٠٠٣، ص ١٢ - ١٥.
٤٠ .*مالك بن نبي.من أجل التغيير*، دمشق، دارالفكر، ٢٠٠٢، ص ٩٣ - ٩٤.
٤١ .*فكرة كمنويلث إسلامي*، ص ٧٤' الظاهرة القرآنية، ص ١٤٠ –١٤٢' القضايا الكبرى،ص ١٥٢.
٤٢ .مراد هوفمان. *الطريق إلى مكة*.القاهرة،دارالشروق، ١٩٩٨، ص ٢٤.
٤٣ .*الظاهرة القرآنية*، ص ١١٢.
٤٤ .*مذكرات شاهد القرن*، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.
٤٥ .وقد ذكرالعلماء أن كلمة عكاظ تعني التجمع والازدحام والتفاخروالتجادل والتعارك، فسوق عكاظ لم يكن مقتصرًا على التجارة، ففيه تنظم الحلقات الشعرية وتعرف خلاله مكة ازدحامًا كبيرًا ونشاطًا غيرمعهود. انظرفي هذا الموضوع: د. جواد علي.*المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. بيروت،دار العلم للملايين، ١٩٧١. ج ٤. ص ٣٨١ - ٣٨٤.
٤٦ .*فكرة الافريقية الآسيوية*، ص ٢٣٤.
٤٧ .*مذكرات شاهد القرن*، ص ٢٩٢.
٤٨ .*فكرة كمنويلث إسلامي*، ص ٢٤.
٤٩ .د. أبوالقاسم سعد الله.فرنسيان في الحجاز١٨٤١ ـ١٨٩٤.المنهل، جدة،العدد ٥٣٤ ، يوليو ـأغسطس ١٩٩٦، ص ٨١.
٥٠ .الإصلاح ،العدد ٦٣، ١٧ أكتوبر١٩٤٧.
٥١ .د.أبوالقاسم سعدالله.*بحوث في التاريخ العربي الإسلامي*. بيروت،دارالغرب الإسلامي، ٢٠٠٣ ص ٣٤٧.
٥٢ .*مذكرات شاهد القرن*،ص ٣٤٥.